الإمام سيدي عبد الرحمن الثعالبي وكتابه "جامع الأمهات في أحكام العبادات"

أ/ محند أو ادير مشنان

أستاذ الفقه والأصول بكلية العلوم الإسلامية

- جامعة الجزائر-

إن الإمام سيدي أبا عبد الرحمن الثعالبي، رجل موسوعة جمع بين مختلف العلوم والفنون، فهو مقرئ مع المقرئين، مفسر مع المفسرين، محدث مع المحدثين، فقيه مع الفقهاء، متكلم مع المتكلمين، متصوف مع الصوفية، مؤرخ مع المؤرخين، لغوي مع اللغويين، إنه متنوع في المواهب والقدرات، كثير في المؤلفات والمصنفات، متعدد المجالات والتخصصات.

وقد استقطب أنظار بعض الباحثين فاعتنوا بتراثه وإنتاجه وتتبعوا ملامحه، واعتنوا بمنهجه في التفسير، وبآرائه في العقيدة، وطريقته ومسلكه في التصوف، وكان ينبغي أن يعتنى به فقيها، لأن للثعالبي في علم الفقه باعا، وفي التأليف بلاء حسنا، شأنه في ذلك كشأن علماء عصره، الذين لا تكاد تجد فيهم عالما ليس له اعتناء بالفقه.

وقد سرتني الدعوة الكريمة التي تكرم بها منظمو هذا الملتقى الكريم المبارك، وأردت في كلمتي هذه أن أخطو خطوة في الاهتمام بالإمام الثعالبي الفقيه، وذلك من خلال كتابه "جامع الأمهات في أحكام العبادات"، والغرض من ذلك أن أدرس الكتاب دراسة وصفية، مع بيان جوانب من منهجه وطريقته.

وجامع الأمهات كتاب في غاية الأهمية، جمع فيه مؤلفه مسائل كثيرة في باب العبادات، من أمّهات المصادر والدواوين. وسأتبع في هذا العرض الخطوات التالية:

عنوان الكتاب، ونسبته إلى المؤلف:

أما عنوان الكتاب "فقد صرح به المؤلف" في مقدمته حيث قال: "وسميته "جامع الأمهات في أحكام العبادات" "[1].

ونسبته للثعالبي أكيدة، لا يرقى إليها شك أو ريب، ويمكن إثبات ذلك بما يلي:

1-أن الإمام صرح باسمه في بداية الكتاب إذ قال: "الحمد لله ذي الجلال، الكبير المتعال...، وبعد فيقول العبد الفقير إلى الله ﷻ عبد الرحمن بن محمد الثعالبي لطف الله به في الدارين اللطف الجميل ...، فقد جمعت بحمد الله في هذا الكتاب مسائل كثيرة في مهمّات الدين جمعتها من أمهات الدواوين... "[2].

وقال في نهاية الكتاب"قال عبد الرحمن بن محمد لطف الله به: وهذا آخر ما قصدنا جمعه من مسائل العبادات، وهو المسؤول أن ينفع به ويجعله صالحا خالصا لوجهه..."[3].

2- أن الثعالبي ذكر في مقدمة هذا الكتاب جملة من مؤلفاته ومصنفاته، قال "رحمه الله": "وقد جمعت قبل هذا تصانيف بحمد الله مفيدة، فمنها: الجواهر الحسان في تفسير القرآن مع الملحق به من الغريب والمرائي...، ومنها: الأنوار في معجزات النّبيّ المختار، والأنوار المضيئة الجامع بين الشريعة والحقيقة، ورياض الصالحين، والتقاط الدّرر، والدّر الفائق المشتمل على أنواع الخيرات في الأذكار والدعوات، والعلوم الفاخرة في النّظر في أمور الآخرة، وشرحنا لابن الحاجب الفرعي، والجامع الكبير الملحق به، وإرشاد السالك كتاب صغير، والأربعون حديثا مختارة، وجامع الفوائد وغنيمة الوافد، والمختار من الجوامع في محاذاة الدرر اللوامع، وكتابنا هذا الذي نحن فيه..."[4].

3-أن المترجمين للثعالبي نسبوا الكتاب إليه، ومنهم التنبكتي[5]، ومحمد مخلوف[6]، وغيرهما.

تاريخ تأليفه:

يعتبر هذا الكتاب من آخر ما ألفه الثعالبي من المصنفات، فقد شرع في تأليفه سنة **857** هـ وله من العمر حوالي **73** سنة، قال الشيخ في مقدمة الكتاب: "وابتدأت جمع هذا الكتاب في عام سبعة وخمسين وثمان مائة جعله الله خالصا لوجهه ومبلغا إلى جنّاته؛ وقد بلغت في السنّ في هذا الوقت نحوا من ثلاث وسبعين سنة، وها أنا أنتظر أجلي والوقوف على كريم رحيم، أرجو من جزيل فضله بلوغ أملي والعفو والتجاوز عن سوء ما قدمت من عملي، عاملنا الله وإياكم بفضله، وجعلنا من خاصة أوليائه" [7].

وكان الفراغ منه يوم السبت عند صلاة الظهر السابع عشر من شهر ربيع الأوّل من عام أحد وستين وثمانمائة [8] السبت **17** ربيع الأول **861**هـ.

وبهذا يكون الثعالبي رحمه الله قد استغرق أربع سنوات أو أكثر في تأليفه.

مراجعه ومصادره:

عنوان الكتاب "جامع الأمهات في أحكام العبادات" يوحي بأن الثعالبي اعتمد فيه على أمهات ودواوين كثيرة، والأمر كذلك فعلا، فقد ذكر المؤلف في خطبة الكتاب على ما يزيد عن **40** مصدرا ومرجعا، وهي:

- الموطأ.
- صحيح البخاري.
- صحيح مسلم.

- المدونة الكبرى[9].
- تهذيب المدونة للبراذعي.
- البيان والتحصيل لابن رشد الجد.
- المقدمات الممهدات لابن رشد الجد.
- النوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني.
- الإكمال للقاضي عياض.
- التنبيهات للقاضي عياض.
- إكمال الإكمال للأبي.
- شرح التلقين للمازري.
- التبصرة للخمي.
- الجامع لابن يونس.
- المنتقى للباجي.
- الاستذكار لابن عبد البر.
- القبس لابن العربي.
- المختصر لابن عرفة.
- كتب ابن بشير.
- الجواهر الثمينة لابن شاس.
- مختصر ابن الحاجب الفرعي.
- تقييد أبي الحسن الصغير على المدونة.
- الذخيرة للقرافي.

- اختصار الذخيرة لابن التلمساني.
- الإحكام لابن دقيق العيد.
- مختصر خليل بن إسحاق.
- شرح ابن عبد السلام على مختصر ابن الحاجب الفرعي.
- شرح ابن راشد على مختصر ابن الحاجب الفرعي.
- شرح ابن هارون على مختصر ابن الحاجب الفرعي.
- نوازل البرزلي.
- شروح بهرام.
- شرح ابن الفاكهاني على العمدة.
- شرح ابن الفاكهاني على الرسالة.
- كتب ابن عطية.
- النكت لعبد الحق.
- كتاب ابن محرز.
- شرح الثعالبي على مختصر ابن الحاجب الفرعي.
- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر.
- مؤلفات أبي إسحاق التونسي.
- مؤلفات ابن بطال ومنها شرح صحيح البخاري.

واعتمد على كتب أخرى لم يصرح بها في المقدمة، منها:

- إحياء علوم الدين للغزالي.

- كتابه العلوم الفاخرة في أحوال الآخرة.
- كتاب أبي القاسم محمد بن عبد الواحد بن أبي القاسم الغافقي في الرقائق.
- الرسالة القشيرية.
- السنن الأربعة.
- صحيح ابن حبان.
- القواعد للقاضي عياض.
- تعليق الوانوغي على تهذيب المدونة للبراذعي.

التعريف بمقاصد الكتاب وبيان أهميته:

نبه الإمام الثعالبي "رحمه الله" في أول كتابه إلى أمر مهم ، وهو ضرورة تعريف المصنف بكتابه، حيث قال: "ينبغي لمن صنف تصنيفا أن يُعَرِّف به حتى لا يكون تأليفه مجهولا، لأنه إن كان مجهولا سقطت الثقة به"[10].

وبناء على ذلك ، بين الثعالبي "رحمه الله" أن مقصوده من كتابه هو جمع المسائل الضرورية التي يحتاجها الناس مما تعم به البلوى، ويحتاج إليه في الفتوى، إذ قال: "واعلم رحمك الله أن مقصدي في هذا الكتاب جمع المسائل الضرورية التي تعم بها البلوى غالبا، وقد أكثرت من النقل عن مختصر خليل الذي ألفه في الفتوى، ليعتمد عليه في الفتوى فيما تعم به البلوى، وإنما أنقل عنه الواضح السهل غالبا، وأترك منه الصعب وأستغني بغيره عنه، وهكذا نقلي لكلام ابن عرفة وابن الحاجب وغيرهما، إنما أقصد منه الواضح غالبا"[11].

ومن مقاصد الثعالبي في كتابه هذا تسهيل الاستفادة من ثلاثة مختصرات كانت مراجع مهمة في عصره، وهي مختصر ابن الحاجب الفرعي، ومختصر ابن عرفة، ومختصر خليل، فغالب اعتماد الناس في دراسة الفقه كان منصبا على هذه المختصرات، وخاصة مختصر خليل، ولكنها كانت معقدة صعبة التحصيل والمنال، وربما كانت عباراتها شبيهة بالألغاز، لما فيها من الاختصار الشديد، الذي اقتضاه جمع أكبر عدد من المسائل في أقل قدرٍ ممكنٍ من العبارات.

ولما كانت حاجة طلبة العلم "وقتئذ" إلى هذه المختصرات أكيدةً، وكان تسهيل فهمها وتحصيلها أمرا ضروريا، فإن الثعالبي العالم الفقيه المدرّس المعلّم أراد أن يجعل من كتابه هذا مفتاحا لدراسة هذه المصنفات وتسهيل تحصيلها واستيعاب ما فيها من أحكام العبادات.

وصرح بهذا المقصد قائلا: "اعلم رحمك الله أن هذا الكتاب مع كثرة ما تراه من فوائده، فنفعه متعدد يفهم منه كثير مما وقع مجملا في مختصرات المذهب، فهو كالشرح لابن الحاجب، وكالشرح لابن عرفة، وكالشرح لمختصر خليل الذي صنفه في الفتوى؛ فالناظر في هذه الكتب الثلاثة لا غنى له عن هذا الكتاب... لأن هذه الكتب مختصرة في غاية الاختصار، فإذا تأمل الناظر هذا الكتاب ووقف على ما نقلناه من كلام الأئمة...، اتضح له كلام هذه المختصرات، لأنها من تلك الكتب اختصرت، فافهم رحمك الله"[12].

إن طريقة الشروح والحواشي كانت راسخة في أذهان الكتاب والمؤلفين في ذلك العصر "ومنهم الثعالبي"، فكتابه هذا ليس شرحا لنظم ولا تعليقا على متن، ومع ذلك قد حرص على ربطه بمتون مشهورة واعتبره كالشرح لها.

موضوعاته ومحتوياته:

اقتصر الثعالبي في كتابه هذا على جانب واحد من الفقه الإسلامي هو فقه العبادات فقط، وهو واضح من عنوان الكتاب. وصرح بالسبب الذي دفعه إلى ذلك، حيث قال: "وكانت نيتي الاقتصار على العبادات لأن وقتي قد ضاق، والأجل قد قرب"[13].

ويبدو أن الثعالبي كان منهجيا منضبطا في كل أعماله وتآليفه، إذ لا يعرف للثعالبي كتاب شرع فيه ولم يتمّه، فلما استشعر كِبَرَ سنه، وخشي أن يدركه أجله قبل إتمام الكتاب، اقتصر على جانب العبادات، لأن استيعاب كل الأبواب بالمنهج الذي اتبعه في هذا الكتاب قد يستدعي منه سنين طويلة.

ثم إن له كتبا أخرى في الفقه استوعب فيها كل الأبواب، منها شرح مختصر ابن الحاجب الفرعي[14]، وشرح مختصر خليل[15]، وروضة الأنوار ونزهة الأخيار، وهو في عدة مجلدات جمعه من ستين ديوانا أو أكثر[16].

وإليك توزيع موضوعات وحجمها كما وردت في نسخة المكتبة الوطنية الجزائرية:

الموضوعات	الأوراق	النسبة المئوية
1 ـــ كتـــاب الطهارة	(2/ظ) إلى (57/ظ)	% 16.66
2 ـ كتـــاب الصلاة	(57/ظ) إلى (289/و)	% 70.30
3 ـ كتـــاب الصيام	(289/ظ) إلى (311/و)	% 6.66
4 ـ كتـــاب الزكاة	(311/و) إلى (324/ظ)	% 3.93
5 ـ كتاب الحج	(324/ظ) إلى (332/ظ)	% 2.42

ويتبين لنا من هذا الجدول ما يلي:

1- أن حجم الكتاب كبير، إذ تقع نسخة المكتبة الوطنية الجزائريـــة في **332** أي **664** صفحة، من الحجم الكبير، مقياسها: **287** × **216** مم، وعدد الأسطر في كل صفحة يتراوح بين **31** إلى **32** سطرا.

2- أن كتاب الصلاة قد استوعب معظم الكتاب، يليه من حيث الحجم كتـــاب الطهارة، ثم كتاب الصيام، ثم كتاب الزكاة، ثم كتاب الحج.

ولعل هذا التفاوت راجع إلى طبيعة تلك الكتب وتشعبها أصلا من حيث هي، فمعلوم لدى الدارسين أن كتاب الصلاة أوسع أبواب العبادات. ومع ذلك فيبدو أيضا أن نفس الثعالبي"رحمه الله" في الكتاب لم يبق على الوتيرة نفسها، ولعل هاجس كبر السن وخشية اقتراب الأجل قبل إتمام الكتاب هو الذي جعله يغير من وتيرة الكتاب في آخره[17]، فجاءت كتب الصيام، والزكاة، والحج، مختصرة إذا قارنها بكتابي الصلاة والطهارة.

وسبب ضخامة كتابي الطهارة والصلاة أنهما تضمنا أبوابا وفصولا كثيرة في المواعظ والرقائق والفضائل، ولم يذكر في كتاب الزكاة إلا فصلين في المواعظ، واقتصر في كتابي الصيام والحج على المادة الفقهية دون تعرض إلى شيء من المواعظ والرقائق.

منهج الثعالبي وطريقته في هذا الكتاب:

كثرة التفريع:

لم يخرج هذا الكتاب عن طبيعة كتب عصره ومنهجها العام، من حيث الاعتناءُ بالتفريع وجلبُ الكثير من المسائل، فهو يذكر الكتاب، والباب، والفصل، ويذكر تحت الفصل فروعا ومسائل كثيرة، والغالب عليها أنها من المسائل الضرورية التي تعم بها البلوى في عصره، ويكثر سؤال الناس وطلبة العلم عليها، وفي هذا الشأن يقول في خطبة الكتاب: "واعلم رحمك الله أن مقصدي في هذا الكتاب جمع المسائل الضرورية التي تعم بها البلوى غالبا، وقد أكثرت من النقل عن مختصر خليل الذي ألفه في الفتوى، ليعتمد عليه في الفتوى فيما تعم به البلوى"[18].

وهذه الطريقة هي الغالبة على أغلب المؤلفين في تلك الفترة، من الطبيعي أن يكون الثعالبي متأثرا بمنهج أهل زمانه في التأليف والتصنيف.

الجمع بين التطويل والاختصار:

اعتمد الثعالبي في كتابه هذا على منهج يجمع بين التطويل والاختصار، فهو يعرض المسائل مبسوطة مفصلة، بما فيها من تفريع وتأصيل واستدلال وبيان للآراء المختلفة، ثم يعقد بابا أو فصلا على شكل خلاصة يبيّن فيه زبدةَ ما تقدم، ويسميه: "باب في تمييز ما به الفتوى"، أو "فصل في تمييز ما به الفتوى"، يقتصر فيه على المشهور الذي عليه مدار الفتوى، وهذه الطريقة تعتبر أساسا في المنهج الذي تبناه الثعالبي والتزمه في كتاب، وقد صرح به في خطبة هذا المصنَّف إذ قال: "وإذا ختمت بابا ذيلت في الأغلب بفصل من مختصر خليل، وقلت: فصل في تمييز ما به الفتوى، لأن ما قبله قد يكون فيه التصريح بالمشهور وقد لا يكون التصريح به، يعلم من مختصر خليل، فافهم رحمك الله"[19].

الاستدلال لمسائل الفقه وتوجيهها:

جرت عادة كثير من المؤلفين في عصر الثعالبي أن تكون كتبهم خالية من بيان أدلة المسائل، غير أن بعض الأئمة صنفوا كتبا عرضوا فيها الفقه بأدلته، والثعالبي مع كثرة التفريع لم يغفل الاستدلال لكثير من مسائل الفقه من الكتاب والسنة والإجماع والقياس، فكان كثيرا ما يذكر حكم المسألة ثم يقول: وذلك للحديث الصحيح...، أو لما رواه البخاري أو غيره من أئمة الحديث، وأحيانا يقول لأمره ﷺ بكذا، أو لنهيه ﷺ عن كذا، وقد يقول: ودليلنا قوله ﷺ.... إلى غير ذلك من كيفيات الاستدلال المختلفة.

وهذا ما أضفى على الكتاب قوة وأهمية، وزاده رونقا ومتعة، إذ ربط مسائل الفقه بأدلتها حتى يطمئن الدارس إلى صحتها، وكان معتنيا بتخريج الأحاديث وبيان درجتها، وهذا أمر ليس غريبا على الثعالبي الجامع بين الفقه والحديث، ولا يخفى ما للثعالبي من مؤلفات وإجازات في الحديث.

كما عني بالاستدلال بآثار الصحابة وأدلة التشريع التبعية كالعرف، والمصالح، وعمل أهل المدينة، والاستحسان، ومراعاة الخلاف، وغير ذلك.

وربما استدل بما وصلت إليه تجارب الأطباء، ومن هذا القبيل أنه علل كراهة استعمال الماء المسخن بالشمس، بأنه يورث البرص، وذلك من جهة الطب، ثم ذكر حديث عائشة رضي الله عنها: "**إنه يورث البرص**"، ونقل عن عبد الحق قوله: لم يصح فيه حديث[20].

ورغم حرصه على توجيه المسائل وذكر أدلتها، فإن فروعا ومسائل كثيرة ذكرها مجردة عن الدليل، إذ من الصعب استحضار أدلة كل المسائل "كما لا يخفى على أي باحث أو دارس".

الإشارة إلى بعض القواعد الأصولية والفقهية والضوابط والنظائر، ولكن هذا النوع من الفوائد قليل في هذا الكتاب، رغم أنه منهج جيد يمكّن طالب العلم من جمع أكبر قدر من المسائل تحت قاعدة واحدة أو ضابط واحد، ويمكن من إلحاق المسائل بنظائرها، وبهذا يسهل استيعاب الفقه، ولا تخفى أهمية القواعد والضوابط الفقهية.

الإشارة إلى الروايات المختلفة في المذهب، وبيان آراء مختلف مدارس المذهب المالكي، إذ يذكر آراء المدنيين، والعراقيين، والمصريين، والأندلسيين، والمغاربة، ويشير إلى رأي الإمام مالك، وآراء تلاميذه، وتخريجات مجتهدي المذهب، وأقوال المحققين، وربما صرح بما يختاره من هذا الخلاف أحيانا[21].

بيان المشهور الذي جرت به الفتوى، وكثيرا ما يذكر دليل القول المشهور، ويبدو أن الثعالبي من الفقهاء الملتزمين بالقول المشهور في العمل والفتوى، وفي هذا الصدد يقول رحمه الله: "وإذا ختمت بابا ذيلت في الأغلب بفصل من مختصر خليل، وقلت: فصل في تمييز ما به الفتوى[22]، لأن ما قبله قد يكون فيه التصريح بالمشهور وقد لا يكون التصريح به، يعلم من مختصر خليل، فافهم رحمك الله"[23]. وهذا المسلك التزم به كثير من علماء المذهب ومنهم الإمام أبو إسحاق الشاطبي عليه "رحمة الله".

ومن العبارات التي يستعملها في بيان المشهور قوله: والقول الفلاني هو المشهور، وهذا الذي عليه العمل، وهو الصحيح على أصل مذهب مالك...

ذكر آراء المذاهب الأخرى: ما من شك أن كتاب الثعالبي مصنف في المذهب المالكي، ومع ذلك فإنه لا يخلو من التنبيه والإشارة إلى آراء المذاهب الأخرى وخاصة المذاهب الأربعة.

التعامل مع الخلاف بنظرة واسعة وأفق رحب، كان الثعالبي يتعامل مع الاختلاف الفقهي على أنه أمر ضروري اقتضته طبيعة أدلة التشريع الظنية المحتملة، ومن عباراته الصريحة في ذلك قوله في تحريك السبابة عند التشهد: " منهم من رأى تحريكها،

ومنهم من لم يره، وكل ذلك مروي في الآثار الصحيحة المسندة عن النبي ﷺ، وجميعُه مباح"[24].

ويرى الثعالبي رحمه الله أن اختلاف العلماء رحمة، ومما يبين ذلك أنه عرض الآثار الواردة في المسألة السابقة ثم قال: "وبحسب اختلاف هذه الآثار اختلفت أقوال العلماء، وهو اختلاف توسعة ورحمة من الله سبحانه"[25].

توخي العبارات السهلة الميسورة ليتسنى فهم الكتاب، ويسهل استيعابه وتحصيله، قال الثعالبي: "وإنما أنقل عنه "أي مختصر خليل" الواضح السهل غالبا، وأترك منه الصعب وأستغني بغيره عنه، وهكذا نقلي لكلام ابن عرفة وابن الحاجب وغيرهما، إنما أقصد منه الواضح غالبا"[26].

وعموما فإن لغة الثعالبي في هذا الكتاب لغة فقهية محكمة، وهي سهلة ميسورة واضحة لا تعقيد فيها، وكان يختار من عبارات الفقهاء ما هو سهل المنال واضح المقاصد، ولعل السر في ذلك هو حرصه على أن ينقل من كتب المتقدمين الذين عرفت كتبهم بسهولة العبارة وُضوحها.

10 ــ تكرار المسائل في كثير من الأحيان: نبه إلى هذا في خطبة الكتاب حيث قال: "واعلم رحمك الله أنني أكرر الكلام لفائدة تظهر لي، وبالجملة فما وقع لي من التكرار في هذا الكتاب، فإنما هو لزيادة توثق، ولزيادة بيان، ولفائدة تظهر للإنسان"[27].

وأكد هذا في الباب الثاني عشر من كتاب الطهارة في جملة من المسائل يعتمد على نصها في الفتيا، إذ قال: "اعلم رحمك الله أن كثيرا من مسائل هذا الباب قد تقدمت، وأعدناها ليعتمد عليها، والتكرار في هذا الكتاب مقصود"[28].

والملحوظ أن التكرار في هذا الكتاب لا يشعر القارئ معه بالسآمة والملل، لأن المؤلف سلك فيه مسلك الخلاصات التي تضع أمام القارئ زبدة ما تقدم في الفصول والأبواب.

التصرف في تقديم بعض التراجم والأبواب وتأخيرها

جرت عادة المصنفين أن يرتبوا كتب الفقه وأبوابها على نظام ونسق معينين، والثعالبي لم يخرج عما تعارف عليه المصنفون في الغالب الأعم، ومع ذلك فربما ظهر له في بعض الأحيان أن يقدم ما اعتاد الناس على تأخيره، أو يؤخر ما تعارف المؤلفون على تقديمه.

ولعله شعر أن بعض القراء سيعترض على صنيعه هذا فاعتذر قائلا: "...وكذلك ما يقع من التقديم والتأخير في التراجم، وربما قدمت ترجمة يقتضي النظر تأخيرها، فقد يكون لوجه يظهر لي، ولست مع ذلك بمتبرئ من غفلة أو نسيان"[29].

حرصه على النقل عن المتقدمين:

وهو منهج أصيل تبناه الكثير من العلماء، ومنهم الشاطبي والقباب وغيرهما، وسار عليه الثعالبي في هذا الكتاب، فكان ديدنه أن ينقل عن المتقدمين كلما وجد إلى ذلك سبيلا، وربما خرج أحيانا عن هذا المنهج، فدعاه ذلك إلى الاعتذار وبيان أسباب ذلك فقال: "وكذلك ربما نقلت عن متأخر مع وجود النص لمتقدم، فهو لفائدة، ولا يقال: هذا قصور، وإن كنت لا أبرئ نفسي"[30].

الأمانة العلمية في العزو:

التزم الثعالبي الأمانة العلمية في نقل النصوص، وسار في ذلك إلى أبعد الحدود والأشواط، ولندعه يبين لنا طريقته في النقل والاقتباس. قال "رحمه الله تعالى": "جمعت بحمد الله في هذا الكتاب مسائل كثيرة من مهمات الدواوين، وتحريت جهدي نقلها بألفاظها... واجتنبت النقل بالمعنى خوف الوقوع في الزلل، وتوخيت في جميع ذلك الصدق والصواب...، وما لم أذكره فمن شرحي لابن الحاجب غالبا"[31].

وأكّد على هذا المبدأ في موضع آخر إثر نقله عن ابن رشد الجد، حيث قال: "انتهى من غير إسقاط حرف ولا زيادته، من أصل صحيح نسخ من أصل المؤلف"[32].

ومع هذا فإنه قد ينقل أحيانا عن بعض الكتب دون عزو، ونبه أن هذا الأمر مقصود وداخل منهج كتابه، قال: "اعلم رحمك الله تعالى أني أنبهك أن تعلم قاعدة هذا الكتاب أني ربما نقلت عن ابن الحاجب أو غيره و لم أعزه له، وقصدي أن آتي به على وجه الصواب، وأترك محل الاعتراض، وأجعل الكلام كأنه ارتجال مني، فافهم"[33].

ويبدو لي أنه يستعمل هذا المنهج عندما يتبنى قولا ما ويعتمده، ليبيّن أن ذلك هو رأيه المختار في المسألة، والله أعلم.

إيراد بعض النكت التفسيرية: إذا اقتضى السياق ذكر نكتة أو فائدة في التفسير، مثال ذلك أنه تعرض إلى تفسيره قوله تعالى: ﴿**وأمر أهلك بالصلاة**﴾[34]، كما تعرض إلى تفسير قوله تعالى: ﴿ **إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله...**﴾ [35].

اهتمامه بالأذكار والدعوات: وظهر هذا في مواضع متعددة منها:

- ذكر الأدعية المختلفة في الوضوء[36].
- القنوت والدعاء في الصلاة واستحباب أن يكون بما في الكتاب والسنة[37].
- بقية الكلام في القنوت والدعاء في الصلاة ومواضعه التي شرع فيها والفكرة والتذكر في معاني القرآن وبيان معنى الخشوع وصفة الخاشعين والبكاء فيها[38].
- فضل جملة من الأذكار إثر الصلوات[39].
- أذكار الصباح والمساء، وما ورد في فضل الذكر والدعاء[40].

والحرص على الذكر والدعاء منهج ثابت مستقر في حياة الثعالبي، انعكس على مؤلفاته، فمن مصنفاته في هذا الشأن كتاب الفائق في الأذكار والدعوات والوعظ.

الإكثار من الرقائق والمواعظ:

يعتبر الإمام الثعالبي من العلماء الذين جمعوا بين الشريعة والحقيقة، وهو من العلماء الربانيين الذي عرفوا بزهدهم ورقة قلوبهم وتعلقهم بربهم، وكان لهذا المنحى والملمح أثره الواضح في هذا الكتاب.

وقد درج كثير من المؤلفين في ميدان الفقه، أن يكتفوا بمسائل الفقه وأحكام الحلال والحرام، ولم يكونوا يدرجون الرقائق والمواعظ ضمن كتبهم الفقهية في الغالب الأعم.

أما الثعالبي فلم يرد أن يكون كتابه خلوا من الرقائق والمواعظ، فأدخل فيه أبوابا وفصولا من هذا الفن كلما وجد إلى ذلك سبيلا، وهو متأثر بحجة الإسلام أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى.

والحقيقة أن موضوع الكتاب المتخصص في العبادات ملائم لهذا المسلك، فالعبادات لا يكون لها أثر إذا لم تمتزج بالروح الإيمانية المتشبعة بالمواعظ التي تورّث رقةً في القلب، وخشوعا في الصلاة، وانتفاعا بالصيام، وإقبالا على الزكاة، واستفادة من أداء مناسك الحج.

فها هو يستهل باب الطهارة بنكتة لطيفة تدخل في باب الرقائق والمواعظ، وعدّد مراتب الطهارة وهي:

الأولى: تطهير الظاهر عن الأحداث.

الثانية: تطهير الجوارح عن الجرائم والأخباث.

الثالثة: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة.

الرابعة: تطهير السر عما سوى الله تعالى وهي طهارة الأنبياء والصديقين

ثم نقل كلام الغزالي: "...فتفطن ذوو البصائر بهذه الظواهر إلى أن أهم الأمور تطهير السرائر، إذ يبعد أن يكون المراد بقوله: "**الطهور شطر الإيمان**"[41] عمارة الظاهر بالتنظيف وتخريب الباطن، فهيهات..."[42].

وقد سار على هذا النهج في أغلب الكتاب، واعتنى بذكرِ فضائل العبادات، وربطِها بالرقائق، وفيما يلي بعض ما تضمنه الكتاب من أبواب المواعظ والرقائق والفضائل.

- فضائل الطهارة والوضوء[43].

- فضائل الصلاة[44].
- تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل ركن وعمل من أعمال الصلاة على طريق أرباب القلوب المراقبين لعلاّم الغيوب[45].
- أسرار الصلاة والعبادات[46].
- وصف الركوع واستشعار التذلل والخضوع لله سبحانه[47].
- فضل صلاة الجماعة وما جاء فيها من الآثار الصحيحة... [48].
- فضل الماشي إلى الجمعة على الراكب، وما لله فيها من عتقاء، وما جاء من القراءة بعد الفراغ من الجمعة[49].
- فضل قيام الليل وآدابه وذكر الأسباب الميسرة له[50].
- ما جاء في صلاة الأوابين[51].
- ما جاء في ليلة القدر[52].
- من صلى وهو مقبل بقلبه، وما للمصلي من الكرامات[53].
- ما يكره من التشدد في العبادة، وما يستحب من الرفق في العبادة[54].
- فضل تعمير المساجد[55].
- فضائل القرآن[56].
- فصل في ﴿قل هو الله أحد﴾[57].
- فصل في تعظيم أسماء الله تعالى[58].
- باب في حسن الخاتمة[59].
- بيان فتنة القبر وسؤال الملكين[60].
- فضل الممتثل لقواعد الشريعة ووعيد من ترك الزكاة[61].

- أقسام المصدقين وصفة الأخذ والعطاء[62].

وهذا أمر ليس بالغريب على الثعالبي العالم الرباني الزاهد الورع، يُدْرِكُ ذلك من درس حياته واطلع على أحواله، وقرأ مؤلفاته ومنها العلوم الفاخرة في النظر في أحوال الآخرة.

الخاتمة:

الثعالبي شخصية معروفة جدا في الأوساط العلمية، إلا أن أغلب كتبه ما يزال مخطوطا في رفوف الخزائن أو مفقودا لم يعثر عليه بعد، وإنها لأمانة في أعناق الباحثين في التراث الإسلامي الاعتناء بالبحث عن أعمال الثعالبي وإخراجها، وأرجو أن يكون هذا الملتقى بابا واسعا ندخل به إلى أرجاء تراث الثعالبي المتنوع.

اهتم الباحثون بالثعالبي المفسر، والمتصوف، والمحدث، والمؤرخ، وثمة جوانب أخرى لابد أن يتجه إليها الباحثون المتخصصون المهتمون، ومنها الاعتناء بالثعالبي الفقيه؛ بإخراج كتبه الفقهية، وتتبع منهجه الفقهي، ليكون ذلك نبراسا يستضيء به الدارسون، ومثالا يقتدي به العلماء الراسخون، وليخرج تراثه إلى النور كي تستفيد منه الأجيال، وما من شك أن إحياء التراث لا يقل أهمية عن إحياء الأرض الموات.

الهوامش

1- انظر: جامع الأمهات في أحكام العبادات، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائر، (1/ظ).

2- المصدر نفسه (1/ظ).

3- المصدر نفسه (332/ظ).

4- المصدر نفسه (2/و).

5- نيل الابتهاج ص 259.

6- شجرة النور الزكية ص 265.

7-جامع الأمهات في أحكام العبادات، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائر، (2/و).

8- المصدر نفسه (332/ظ).

9- نبه المؤلف إلى النسخة المدونة التي اعتمد عليها، وطريقته في الاقتباس منها، فقال رحمه الله إثر نقله مسألة من المدونة ((انتهى من الأم الكبرى من أصل صحيح، ومن هذا المحل كل ما أنقله منها إن شاء الله، وإن نقلت عنها من اختصار البراذعي أو غيره عزوته له، وإن أطلقت فمن الأم)).

المصدر نفسه (13/و).

10- المصدر نفسه (2/و).

وقد أشار إلى مثل هذا الإمام القرافي الذي ذكر أنه لا يجوز الفتوى من الكتب التي جهل مؤلفوها.

11- المصدر نفسه (4/و).

12- المصدر نفسه (2/و).

13- المصدر نفسه (2/و).

14-توجد منه نسخة في مكتبة وزارة الشؤون الدينية والأوقاف ـ الجزائر، ونسخة في الخزانة الحسنية في الرباط، والخزانة الناصرية في تمكروت.

15-انظر: التحفة المرضية في الدولة البكداشية ص 342.

16-نيل الابتهاج للتنبكتي ص 259، وانظر: الأنوار في أيات النبي المختار بتحقيق الدكتور محمد شريف قاهر ص 122.

17- لقد أمد الله في عمر الثعالبي وعاش الثعالبي 12 عاما بعد إتمام هذا الكتاب، فلسنا ندري لماذا لم يتمه.

18- المصدر نفسه (4/و).

19- المصدر نفسه (2/و).

20-جامع الأمهات (4/و ـ 5/ظ).

21-انظر مثلا المصدر نفسه (113/و).

22-فيما يتعلق بهذه النقطة استدرك الثعالبي وبين رأيه حيث قال: ((ولا تفهم من قولي: "تمييز ما به الفتوى" أن الذي قبله لا يكون به الفتوى، بل القول المصدر به هو المشهور غالبا وبه الفتوى، وهو الغالب، والله الموفق للصواب)). المصدر نفسه (2/و).

23- المصدر نفسه (2/و).

24- المصدر نفسه (107/و).

25- المصدر نفسه (107/ظ).

26- المصدر نفسه (4/و).

27- المصدر نفسه (3/و).

28- المصدر نفسه (10/ظ).

29- المصدر نفسه (3/و).

30- المصدر نفسه (3/و).

31- المصدر نفسه (1/ظ).

32- المصدر نفسه (15/و). يبدو أن الثعالبي رحمه الله كان جماعة للكتب، حريصا على اقتناء النسخ الصحيحة، ومن ثم نبه على صحة نسخة المدونة، وصحة نسخة كتاب ابن رشد.

33- المصدر نفسه (7/ظ).

34- المصدر نفسه (238/ظ).

35- المصدر نفسه (239/و).

36- المصدر نفسه (33/ظ).

37- المصدر نفسه (92/و).

38-المصدر نفسه (93/و وما بعدها.).

39-المصدر نفسه (111/ظ).

40-المصدر نفسه (113/وما بعدها).

41-أخرجه مسلم، رقم 223.

42-المصدر نفسه (3/و).

43-المصدر نفسه (20/ظ).

44- المصدر نفسه (57/ظ).

45-المصدر نفسه (94/وما بعدها).

46-المصدر نفسه (93/و)، (100/و).

47-المصدر نفسه (100/ظ).

48-المصدر نفسه (145/ظ).

49-المصدر نفسه (217/و).

50-المصدر نفسه (235/و)، (239/ظ)، (241/ظ).

51-المصدر نفسه (236/و).

52-المصدر نفسه (236/و).

53-المصدر نفسه (239/و).

54-المصدر نفسه (236/ظ)، (240/ظ).

55-المصدر نفسه (239/و ــ 240/و).

56-المصدر نفسه (248/و وما بعدها).

57-المصدر نفسه (253/ظ).

58-المصدر نفسه (259/ظ وما بعدها).

59-المصدر نفسه (266/و وما بعدها).

60-المصدر نفسه (285/وما بعدها).

61-المصدر نفسه (311/ظ).

62-المصدر نفسه (321/ظ).

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس

تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾

آل عمران: 110